التذكار المئوي

للمرسلين العازريين في دمشق

بقلم الاب مبارك ثابت اللبناني

١

في شهر ايار من هذه السنة ، عيّد المرسلون العازريون في دمشق عيد المئة السنة الاولى لاستيطانهم هذه المدينة ، وقيامهم مع راهبات المحبة العازريات بخدمة الدين والعلم ، والمرضى والمساكين والايتام ، ومصالح الدمشقيين العائدة الى الرقي الروحي والادبي. مما بسط الالسن في الثناء عليهم ، وجعل لهم منزلة عالية في النفوس.

كانت حفلات العيد في اكمل مجالي الابهة ، والطف مظاهر الرونق ، بالغة اقصى غايات الترتيب والنظام ، جامعة لدواعي الفرح والابتهاج . ودامت ثلاثة ايام تلوّنت فيها الاعمال والمظاهر والافراح مما يوقظ التقوى في النفوس ، ويدخل السرور الى القلوب. فمن تمثيل معجب ، الى انشاد مغرب ، الى سماع مطرب ، الى مآدب سخية ، الى زينة شائقة ، وخطب خيالية ، ومحاضرات مليحة. فكنت ترى العيد بارزًا في حلة ابتهاج فاخرة مطوّق العنق بقلادة ظرف لامعة.

واقبل الناس من كل الطوائف الى دار الرسالة يهنئون المرسلين والراهبات بالعيد ، معربين لهم عما في صدورهم من عواطف الشكر لابناء القديس منصور الذين ما فتئوا مسافة قرن مواظبين على خدمة الارواح والابدان ، تبديدًا لظلمة الجهل ونشرًا لانوار العلم ، وتخفيفًا من اعباء النوائب واوجاع الفقر والاعتلال ، وتلافيًا لبعض غوائل اليتم والاهمال. وممن شهدوا الحفلات ، او بعضها ، مع اعيان المدينة واهل التلامذة والتلميذات ، الرؤساء الروحيون ، وحضرة الوزير المفوض ، ورئيس المجلس النيابي وغيرهما من ارباب الحكومتين المنتدبة والوطنية.

ولما كان لابناء القديس منصور ولاسيما راهبات المحبة فضلٌ لا يقوم عليه

نكير ، لما يكبدون انفسهم من ضروب التضحيات في سبيل المساكين والمتألمين اخوة المسيح لوجه الله الكريم ، لا نرى اننا نطيش سهماً اذا اعتقدنا كون قراء «المشرق» الكرام يرتاحون الى قراءة نبذة نكتبها في تاريخ الرسالة العازرية في دمشق ، يتسنى لهم بها الوقوف على تاريخ ابنية الرسالة ومنشآتها الخيرية ، مسافة مئة عام ونيف ، في قاعدة الامويين القديمة . فنقول :

العهد الاول

١٧٨٣ — ١٨٢٧

تولّى العازريون الرسالة في دمشق سنة ١٧٨٣ ، وكانت من قبلهم للآباء اليسوعيين . واول من قدم الشام منهم الايوان بطرس اتيان فيروت وجوزف ماري غندولفي . فاقاما في دمشق يزاولان اعمال الرسالة المقدسة طول ايامها . وتوفاهما الله الواحد بعد الآخر ، فكانت وفاة الاخير منهما عام ١٨٠٥ . وكان المرسلون العازريون حديثي الحلول في البلاد ، فشتت الثورات شملهم ولم تستقرّ لهم قدمٌ في سورية . فاقفلت اديارهم التي هي في الشام ، وصيدا ، وطرابلس ، وعين طوره . ولم يبقَ مفتوحاً الا ديرهم في حلب . وقد ذاقوا فيه من ضروب الاعنات والتضييق والوان المخاوف والمتاعب ما تهلع لهوله القلوب وتقشعر لذكره الابدان . لكنهم اعتصموا بالله وتدرّعوا الصبر ، فثبتوا عند الواجب غير متزعزعين ولا هيّابين ، تقفيّاً للرسل القديسين الذين اقتحموا اشدّ المخاطر وازدروا العذاب والشدائد والموت وكل قوات الارض والجحيم ، في سبيل نشر انوار الحقّ وتوسيع ملك المسيح يسوع .

وظلّ دير الشام مقفلاً خالياً والرسالة معلقة الى سنة ١٨٢٧ . وفي تلك الحقبة سمى المجمع المقدس الاب لويس غندولفي العازري زائراً رسولياً في سورية ، وكان مشمولاً بالحماية الافرنسة ، ثم رُقّي الى درجة الاسقفية وجعل قاصداً رسولياً عام ١٨١٧ او ١٨١٦ . فكان يتعهد دير الشام مرّة كل سنة او كل ثلاث سنين ، فيرمم المتهدم منه حفظاً لكيانه ويؤمّل الشعب الكاثوليكي بقرب رجوع المرسلين اليه . وله رسالة كتبها في الشام بتاريخ ٢٦ تموز سنة ١٨٢٠

واودعها شكواه واسفه من اقفار دار الرسالة واهمال شؤون الكاثوليك في المدينة ونواحيها ، ووصف دمشق باجمل النعوت . ومما جاء في رسالته قوله: «اذا جاءني الاجل المحتوم ، وانا الآن على قيد خطوة منهُ ، ولم اخلف في الدير مرسلًا يتولى حراسته في الاقل ، فقد ضاع الدير وكل ممتلكاتهِ ومشتملاتهِ ، وهيهات ان يستردّ ! ».

على ان القاصد الرسولي لم يظفر بمنيته في ما رزقه من العمر بعد تلك الكتابة ، فوافتهُ المنيَّة خامس وعشرين آب سنة ١٨٢٥ ودفن في عين طوره . وهو القاصد الرسولي الثاني من المرسلين العازريين في البلاد السورية . اما القاصد الاول منهم ، وهو اول قاصد رسولي في سورية ولبنان ، فكان الاب أرنولد بوسو فرنساوي من ابرشية اراس ، دخل جمعية المرسلين العازريين سنة ١٧٣٣ ، وصار قاصدًا رسوليًا سنة ١٧٦٣ . وكان في الجزائر فقدم منها الى لبنان ومعه اثنان من ابناء القديس منصور وهما الاب فكتور جليان والاخ لويس بيّورت ، فجعل كرسي قصادته في صيدا في دير الاباء اليسوعيين حيث اقام مدة عشر سنين . وكان في كنيسة الروم الكاثوليك خلافٌ ادّى الى انتخاب بطريركين في وقت يتنازعان السلطة ويدعي كلٌ منهما شرعية انتخابه . فازال بحكمته ذلك الخلاف واقرّ الحق لاحدهما دون الآخر . فانحسم الجدال واستتبّ السلام . ثم انه رجع الى باريس وفيها لبى دعوة الله بموت صالح عام ١٧٧٤ .

اما رسالة الشام فاشرفت على التلف لما نالها من الاهمال التام ، بعد وفاة لويس غندولفي القاصد الرسولي ؛ اذ لم يعد يفتقدها احد من المرسلين . وظلت على هذه الحال من الاقفار مستهدفة للخراب مدة سنتين ، الى ان قيضت لها العناية الالهية التجدّد على يد مرسلين من ذوي الغيرة والفطنة والتقوى والنشاط هما الايوان بوسو ولزوا . ارسلتهما اليها الجمعية فبانا دمشق عام ١٨٢٧ . فاقبلا يرمّان ما تهدم من بنائها ويصلحان ما فسد من حالها ، ولم يعد المرسلون يخلونها منذ ذلك العهد .

وهذا العيد المئوي الذي احتفلت له الرسالة السورية في هذه السنة على ما رأيت في ما سبق ، انما هو عيد تجديدها منذ مئة سنة ونيف على ايدي ذينك

المرسلين . وكان حقّه ان يصير سنة ١٩٢٧ لانها تمام القرن ، فأرجئ الى سنة ١٩٢٩ لحيلولة وفاة المرحوم الاب فيكتور غرو رئيس المدرسة السابق دون اقامة هذا العيد في ميقاته .

الدور الثاني

١٨٢٧ — ١٨٦٠

كان الاب بوسو اول من ترأس الرسالة في دمشق عهد تجدّدها عام ١٨٢٧ . احلته الشام في شهر تشرين الاول من ذلك العام . فاستقبله تعبٌ وهمٌّ عظيمان . اما من جهة الدير فلأنه كان قد انتهى الى احطّ دركات الرثاثة . كيف لا يصير الى هذه الحال منزلٌ هجره سكانه مدة خمس وعشرين سنة متتالية ، فلا مأوى يصلح للسكن ، ولا ماعون ، ولا اثاث . واما من جهة الشعب الكاثوليكي فلأنه كان في الشام ، في ذلك العصر ، زهاء الف اسرة من الروم الكاثوليك ، ومئة اسرة من السريان والارمن . وليس لطائفة من هذه الطوائف كنيسة . الا الموارنة لهم كنيستهم ، وعددهم لا يتجاوز مئة وخمسين نسمة . غير انها اضيق من ان تسع سائر الطوائف الكاثوليكية الشرقية ، وان كانت مفتوحة للجميع . ولا يغرب ما هنالك من تغاير الطقوس .

فرأى الاب بوسو ضرورة التشمير في ترميم معبد الرسالة ، وكان في ذلك عوائق كثيرة وصعوبات متنوعة . فانبرى يذللها بعزيمة لا يتعاظمها امرٌ ، وهمةٍ لا يفوقها مطلب . فما زال دائب السعي على قدم النشاط ، حتى فتح ذلك المعبد للمؤمنين في اقصر ما استطاع من الحين . وعكف على الوعظ والارشاد وشرح التعليم المسيحي ، وسائر اعمال الرسالة الروحية لا يأخذه في مهمته ونىً ولا يستوطئ راحة . ولا يقصر في العمل لاستقدام مرسلين يعاونونه على الحصاد الكثير ، ويتولون ادارة مدرسة في الرسالة حتى اظفره الله بمبتغاه .

ففي عام ١٨٣١ قدم المدينة الايوان تِستِه وتِست ، فعرضَ عليها الحاجة الى المدرسة ، وحزّمها لهذا الامر فنشطا لهُ وصرفا من همها اليه وما ابطآ ان ادركا بغيتهما ، وتجدّدت في الدير المدرسة التي كان الدهر قد اخفى عليها . ثم وجد الاب تِسته امرأةً لبنانيةً تحسن القراءة والكتابة ، ففتح مدرسة للاناث

واقام المرأة لتدريسهنّ . ثمّ ضمّ اليها امرأة تحسن اشغال الابرة فكانت تعلّم الخياطة والتطريز.

وخلا فكر الاب بوتو من شؤون الكنيسة والمدرسة في دمشق ، فراح ينشر كلام الحياة وفوائد الرسالة بين سكان راشيا وحاصبيا . ولم يكن ثمّ مدارس ولا اهتمام بالتعليم الابتدائي ، فحنت له غيرته الرسولية ان يسدّ هذا الخلل فما زال يسعى ويجهد حتى جهز لاسقف الجهة كل ما يحتاج اليه في تأسيس مدرسة لكل من البلدين. وهذه المساعي الرسولية اقتضت ان يسافر الى فرنسة ويقيم فيها برهة من الزمان. ثم جاء رومية واطلع قداسة الحبر الروماني والمجمع المقدس على احوال المسيحيين في دمشق ونواحيها وعرض بعض حاجاتهم الماسّة ، فلقي عطفاً وآذاناً واعية. ورجع الى دمشق حاملاً لقب زائر في سورية عام ١٨٣٩ فاستأنف اعماله الرسولية قائماً بهمته الجديدة احسن قيام . وكان من افاضل المرسلين متهالكاً في مصالح الدين متجملاً بخلال الخير كثير الرأفة بالمساكين . استقدم في السنة التالية الى فرنسة وطنه فألقيت اليه النيابة العامة في الجمعية ، ثم المديرية الاولى عهدَ كانت الرئاسة العامة على عاتق الاب اتيان.

امّا الابوان تستبه وباروزي فخلفهما في الرئاسة على دير دمشق الاب غويلو (Guillot) ، وكان لكرم اخلاقه وكمال مروءته وازدهار فضائله محبوباً جداً وذا منزلة عالية في عيون الجميع . وبلغ من شهرة الفضل والصلاح والنزاهة والصدق حدّ مضرب المثل فكان المسيحيون حتى المسلمون من اهل البلاد يحلفون بحياة « ابونا بطرس » وهو الاسم الذي يعرفونه به . نفع الدين والآداب بمحبوبيته ورقة شمائله وبراعة فضيلته وظرف معاشرته ، كما افادهما بوعظه وتعليمه وغيرته.

وفي سنة ١٨٣٧ ، انتهى الى دمشق الابوان أمايا وبايه ، فاكبّ الاول على درس اللغة العربية ولاقى في ابتداء الامر صعوبات شاقة لكنها لم تثبط عزمه لمضاء همته . فلم يستكمل ستة اشهر حتى صار قادراً على شرح التعليم المسيحي بهذه اللغة في مدرسة البنات . وكان الاب بوتو قد تقدمه في تعلم العربية ، وبلغ مثله ما توخّاه من استطاعة شرح التعليم المسيحي ، لكنه ما

بلغ الغاية الا بشقّ النفس.

ثم ان الاب أمايا غادر دمشق بعد مدة يسيرة متوجهاً في اعمال الرسالة الى لبنان الشمالي. فجعل مقامه في زغرتا واهدن ، وتقرّب من اسرة كرم ، والقيت اليه مهمة تثقيف يوسف بك كرم الشهير ، وكان في سن السادسة عشرة عام ١٨٤٨ . فأحسن تأديبه بالمعارف وعزّز قلبه في مبادئ التقوى ومحبة الوطن وانمى في نفسه الفضائل المسيحية الراهنة.

وكانت مدرسة دمشق قد بلغت شأواً من النجاح والشهرة على قدر ما يُستطاع في ذلك الزمان مع كثرة العوائق والحوائل من قلّة المدرّسين والمدرّسات ، وقلة اكتراث الناس للعلم مع تتالي الاحداث وتقلبات الازمان . فمّا كتبه الاب كوزه عن هذه المدرسة قوله : « في ذلك العهد كانت مدرسة الشام التي يديرها المرسلون العازريون سائرةً في سبيل التقدم مرضية السير والانتظام تعلّم الافرنسية بشيء من النجاح بدليل ان تراجمة القنصليات في مدينتنا كلهم من متخرجيها على التقريب.»

وكان ان القنصل الفرنساوي رغب الى المرسلين في استقدام راهبات المحبة الى الشام ، لانفساح مجال العمل لهنّ في ذلك البلد الكبير الشديد الحاجة الى امثالهنّ . وحضّ المسيحيين على طلبهن ، فالحفوا في الطلب ، وسُيرت رسائل في ذلك الى الرئيس العام . فاستقدم الاب لروا الى باريس وفاوضه في انشاء دير للراهبات في دمشق اجابة لطلب القنصل والمسيحيين. فزيّن له الاب لروا المشروع واطنب في التشويق والترغيب وبالغ في بسط الحاجة وتهوين الامر وتسهيل السبيل. فقرّ الرأي على ما أحبّ ، فرجع الى بيروت مكللاً سعيه بالظفر . وفي ٢٣ تشرين اول من عام ١٨٥٤ ، توجه الى الشام يصحبه الاخ نيقولا والجالية الاولى من راهبات المحبة وهنّ ستٌّ برئاسة الاخت بيكوت(Bicot)، وقدمت معهنّ الاخت جلاس ذات الشهرة البعيدة بمنشآتها الخيرية العظيمة في هذه البلاد، ولاسيما بجودة رأيها وتوقد فهمها وغزارة فضلها وتهالكها في محبة الله والقريب.

في ذلك الزمان ، الذي بيننا وبينه مسافة ٧٥ سنة ، لم تكن طريق المركبات تصل الشام ببيروت . اما الطريق الذي تسلكه السيارات اليوم ،

وكان معروفاً بطريق الداليجانس ، فقد فتحته شركة افرنسية عام ١٨٥٩ ، اي بعد سفر الراهبات الى دمشق بخمس سنين . فلزم القافلة ان تقطع تلك الشقة الشاسعة بين البلدين على ظهور الخيل والبغال ، مجتازةً جبال لبنان ، وسهل البقاع ، ومضيق ميسلون (وادي القرن) ، واعالي انتيلبنان ، في مسالك وعرة كثيرة العقبات والمنحدرات والمزالق والحفر . ولمّا انتهت القافلة الى شطوره ، اذا الاب غريلو رئيس الرسالة قد جاء للقائها في ثلاثة عشر شاباً من نخبة أسر المدينة . فاستراحوا وباتوا . ثمَّ استأنفوا المسير تحرسهم ملائكة الامن في سلامة من كل خطر ومكروه ، الّا ما اصاب الراهبات من تعب الطريق ، حتى انتهوا الى دمشق في ٢٦ تشرين اول سنة ١٨٥٤ .

فكان لقدوم ملائك الرحمة فرح واغتباط عظيمان في المدينة . وجرى لهنَّ استقبالٌ شائق قام به قنصل فرنسة واسرته ، ورجال القنصلية ، وجمعٌ غفير ، من المسيحيين ، وواكبوهنَّ الى ديرهنَّ بابهى مجالي المودَّة والحماس .

وبعد اسبوع واحد لوصولهنَّ باشرنَ اعمال المحبة المسيحية على دأبهنَّ في كل بلد احللنَ . فجعلنَ باكورة اعمالهنَّ فتح مستوصف عام في منزلهنَّ . فلم يكد خبره يُذاع في المدينة حتى احتشد على بابه زهاء سبع مئة نفس التماس المعالجة والدواء ، لما كان للناس من صحة الركن الى بنات المحبة والى جودة ادويتهنَّ . فلما رأين كل هذا الازدحام استقدمنَ قوّاماً من القنصلية الافرنسية يحجز الحشد ، ويميز الفقراء من المدَّعين الافتقار .

وزادت بنات المحبة على توزيع الادوية ان جعلنَ يتعهدنَ بيوت المساكين ، حاملات لهم اصناف التعزيات والمعونات .

وكان المرسلون العازريون قد انشأوا مدرسةً ومشغلاً للبنات ، وقلدوا التعليم فيهما امرأتين من نساء البلد على ما رأيت في ما مضى . فتولّت الراهبات ادارة المعهدين ، وما هي الّا مدة يسيرة حتى فتحنَ ثلاث مدارس وثلاثة مشاغل تضم ٣٠٠ متعلمة .

ولبضعة اشهر تلت استقرار راهبات المحبة في الشام ، جيء اليهنَّ بينتر في احط درجات الإدقاع ، فقبلنها عندهنَّ بمثابة يتيمة ، فما عتم ان جاء بعدها

تسع عشرة بنتاً اخريات ، ومن ثمّ تأسس ميتم البنات.

وفي اواسط ايلول عام ١٨٥٩ ، كان دير الراهبات قد بلغ غاية قاصية من النجاح وانتظام الشؤون ، بغيرة الاب لروا وحسن تدبيره واستقامة ادارته . وبسعيه لدى الرؤساء أسندت رئاسة الرسالة الى الاب ناجان ، فاوسع نطاقها واصعدها درجات في سلّم الرقيّ واحسن سياستها غاية الاحسان . وصارت مدارس العازريين تدرّ لهم الارباح بما يجعلهم في سعةٍ من العيش ويصرفون فاضله الى المساكين والمشاريع الخيرية.

غير ان هذا النجاح الباهر كان اسرع زوالاً من الظل واقصر عمراً من كواكب الصباح . فانه لم تمض ثمانية ايام لفراغ الاخ نيقولا من صنع منجور لما تمّ من البناء ، الّا اشتعلت فتنة السنة الستين التي اكتسحت بعض نواحي سوريّة ، ودمّرت اقليمين من اقاليم جبل لبنان . وكان شبوبها في الشام الساعة الثالثة من مساء تاسع تموز عام ١٨٦٠ ، فسحبت ذيل الخراب على حيّ المسيحيين باسره ، وقوّضت كل ما بناهُ بجهد النفس وكدّ اليدين المرسلون الافرنسيون من مباني المحبة الى المدارس الى بيت السكن . ولولا شهامة الامير عبد القادر الجزائري ، لما نجا بارواحهم المرسلون ، ولا الراهبات ، ولا من في ديرهنّ من يتامى ودارسات . فانه لساعةٍ قبل اطلاق النار والحديد في حي المسيحيين ، دخل على الامير كاتب اسراره وقال له: « لقد اكتنفت المسيحيين المخاطر وامسى الموت منهم على قاب قوسين ، فهل فكّر سيدي في المرسلين والراهبات ؟ انك ان لم تسرع لانقاذهم فانهم لا محالة هالكون.» فقام الامير لساعته ونادى بضع عشرات من رجاله ، وامرهم ان يجيئوا الى داره بالعازريين والراهبات واليتامى وكل من في منازلهم . فمضوا في ذلك وكانت الساعة الثانية بعد الظهر . وهابهم الثوار لبالتهم ، فلم يجرأوا على مسّ مخفوريهم باذى ؛ الّا رجلٌ من المسلمين تصدّى لراهبة في الطريق ، فهوى عليه احد رجال الامير بضربة سيف فلقت رأسه فخرّ صريعاً وصار عبرة ، ووقع خوف الجزائريين على الجميع.

(للبحث صلة)